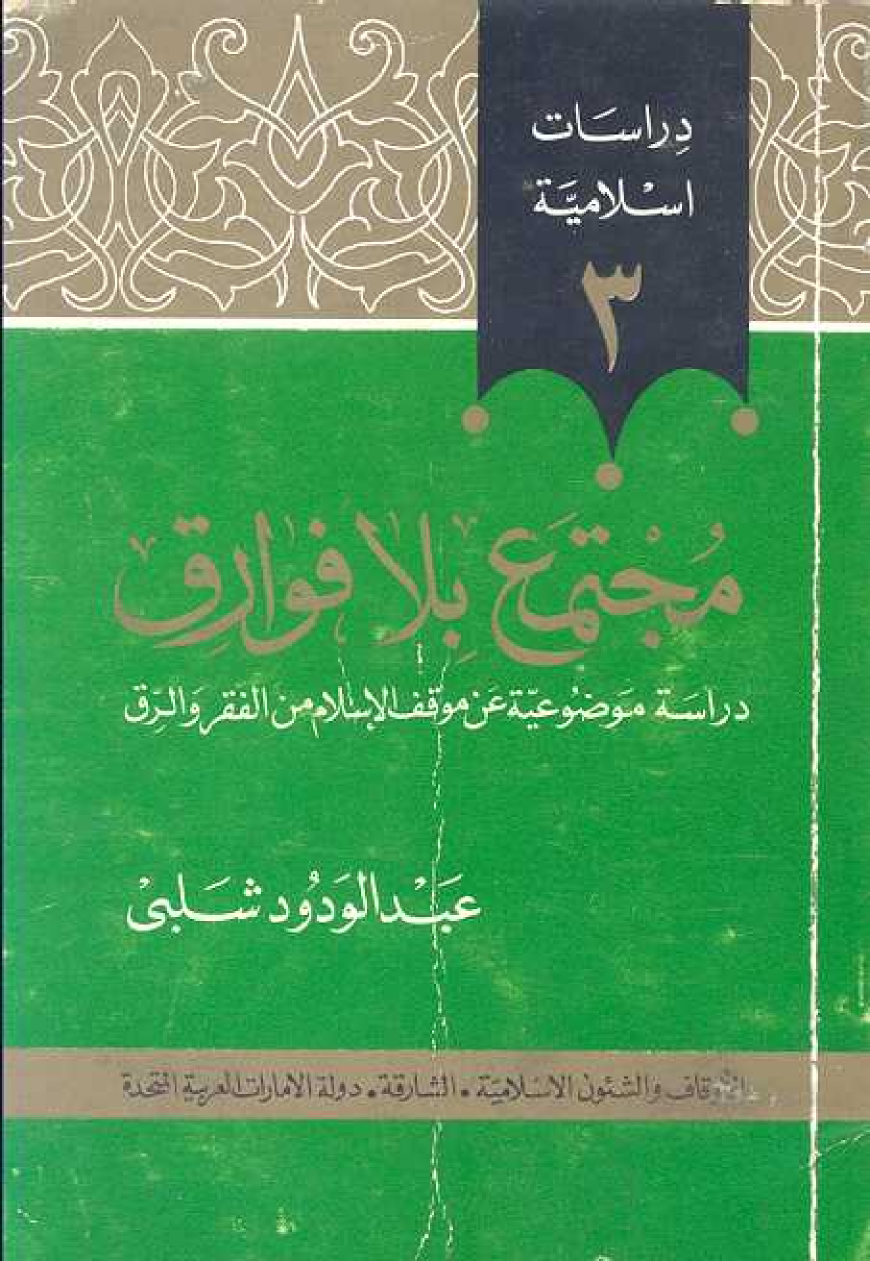

دراسات
اسلامية
٣
مجتمع بلا فوارق
دراسة موضوعية عن موقف الإسلام من الفقر والرق
عبد الودود شلبي
... وقاف والشئون الاسلامية . الشارقة . دولة الامارات العربية المتحدة

الطبعة الأولى

دِراسَات اسلاميَة

٣

مُجْتَمَع بِلا فوارِق

دراسَة موضوعيَة عن موقف الإسلام من الفقر والرِق

عبد الودود شلبي

الأوقاف والشئون الإسلامية . الشارقة . دولة الامارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

بَلْ نقذِف بالحقّ علَى الباطِل ...

فيَدْمَغهُ ...

فإذا هُوَ زاهِق ...

صدق الله العظيم

مقـــدّمَة

يا له من دين لو كان له رجال ...

هذه الكلمة التي نطق بها رجل غير مسلم ، وفي حالة من صفاء البصيرة ، وفي مرحلة من التاريخ حرجة ، وفي وقت فقد فيه المسلمون حرارة العقيدة ...

هذه الكلمة تؤرقني ، وتهز كياني ، وتتهمني أمام نفسي ... !

العالم كله يتآمر .. يتآمر على هذا الاسلام . يتآمر على شعوبه . يتآمر على وجوده .

ونحن .. نحن المسلمين في غفلة .. ولا حول لنا ولا قوة . قلوب شتى وإرادة عاجزة ، ويد في النائبات مشلولة

في كل مكان حرب . حرب على ديننا ... بالسلاح يحاربون .. بالفكر يحاربون.وفي ديارنا .. في دار الاسلام...تتخذ هذه الحرب صوراً عديدة . وأشكالاً مختلفة . غزو خطير مدبر . غزو سلاحه الثقافة والفكر... أوكار تنتشر في كل ناحية . حركات كثيرة مشبوهة ، كتب ونشرات مسمومة ، وأولادنا وشبابنا هم الضحية ..

من المسئول عن هذا ... ؟

إنها مسئولية الحاكم ، ومسئولية العالم ، ومسئولية المفكر ، ومسئولية المعلم ، ومسئولية كل غيور مسلم .

إنه جهاد الوقت للذين يحملون أمانة التوجيه في كل موقع .

وقد كانت هذه الدراسة تلبية لحاجات الشباب الذين أحبهم ، دراسة تقدم بعض الملامح لهذا الدين الذي ختم الله به رسالة النبوة ، وتكشف مواطن الزيف في ادعاءات الحاقدين وأساليبهم

الملتوية . وتوضح للحائرين حقيقة الإسلام وموقفه من قضايا العدل والكرامة والحرية ...

إنها رسالة الشباب . لأن الشباب هو الأمل والمستقبل .

والأمل لا يأتي من فراغ وتمزق ، وإنما يتجدد الأمل ويحيا بالعقيدة التي بدونها تكون الحياة لفظاً بغير معنى ، وكلمة بدون حقيقة .

عبد الودود شلبي

الصِّرَاع مَعَ الفَقْر

مهما يكن دين المرء وعقيدته : فإنه يعترف صادقا .. بأن الاسلام وحده هو الدين الذي قدم أرقى وأعدل نظام عرفه البشر...

ماسينيون

القسم الأول : موقف الإسلام من الصراع ضد الفقر

من قديم الأزل ..

والصراع قائم بين الخير والشر فوق هذه الأرض . صراع على السلطة . وصراع على السيطرة . وصراع على المال والثروة . وصراع على المبادىء والعقيدة .. حتى لا يكاد يمر يوم من تاريخ البشرية دون دم ... ومعركة ...

صراع في كل شيء . وصراع على لا شيء .. فإذا عجز الناس عن افتعال سبب لهذا الصراع نكسوا على رءوسهم وتصوروا السماء أرضاً ، والأرض سماء، واختلط عليهم الأمر فجعلوا الحق باطلاً ، والباطل حقاً .

ومحنة إنسان هذا العصر أنه يفكر بمعدته ويأكل بعقله ! ! ! أو كما يقول اينشتاين: ان سواعده أقوى من ضميره ! وفي مثل هذا العالم تضيع الحقائق النيرة وتختل موازين العدل والحق فلا يميز بين القاتل والضحيـة . . .

والاسلام على رأي أحد مفكري الغرب يجني حصاد هذه الأحقاد المريرة ، فاذا كان غيره أخطأ فليكن وحده المسئول عن هذه الخطيئة .. !

انها قصة الحمل مع الذئب تتكرر مع خيالها على مسرح الحقد والضغينة ...

مادخل الإسلام إذا كان ثوار فرنسا قد هتفوا بشنق نبلائهم بأمعاء آخر الكرادلة ؟ ! وما ذنب الاسلام إذا كان رجال الكهنوت في روسيا معادين للحق والعدالة ؟ ! وتخلوا عن شعوبهم المقهورة إرضاء للقياصرة ؟

لم يكن في تاريخ الاسلام كله هذا الانفصام بين العالم العامل . والحاكم العادل .. لقد وقف الاسلام من أول يوم يقتص للمظلوم من الظالم .

وينتصف للمحكوم من الحاكم . ولم يكن في تاريخ الاسلام كله سبب واحد يدعو للثورة على تعاليمه أو النيل من عدالته وشرفه، فهل كان للنظم والمذاهب الأخرى مثل موقفه ؟

لنقرأ أولاً ، ثم نحكم بعد ذلك ...

اذا نظرنا في كتب العهد القديم . وهي التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ؛ فإننا نجد كثيراً من النصوص التي تؤكد بقاء الفقر في هذه الأرض وتوصي في نفس الوقت بالبر ومد يد المساعدة الى الفقراء والمحتاجين .

« الرب يحيي ويميت

يهبط الى الهاوية ويصعد .

الرب يفقر ويغني .

يضع ويرفع .

يقيم المسكين من التراب ويرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء .

ولذلك أنا اوصيك قائلاً : افتح يدك لأخيك المسكين

والفقير في أرضك .. اقضوا للذليل ولليتيم . انصفوا البائس والمسكين . نجوا المسكين والبائس ....

وتقول التوراة في التنديد بالأغنياء الأشرار :

« ينقلون التخوم يغتصبون قطيعاً ويرعونه

يشتاقون حمار اليتامى ويرتهنون ثور الأرملة .

يصدون الفقراء عن الطريق » .

هذه هي بعض نصوص التوراة التي تنادي بمعونة الفقير والمسكين وتطالب بأخذ يده عند الشدة والفاقة . ولكن اليهود يفسرون هذه النصوص تفسيراً عنصرياً كريها ، فهم يقولون إن الفقير الذي تجب مساعدته إنما هو الفقير اليهودي ، والمسكين الذي يؤخذ بيده انما هو المسكين الإسرائيلي فقط . أما غير اليهود من الفقراء والمساكين فلا مكان لهما في مجتمع يهودي لا يعترف بوجود أحد غير اليهود ، وقد سيطرت هذه العنصرية البغيضة على المجتمع اليهودي حتى صارت الحياة فيه مستحيلة على المسلم أو المسيحي الذي تحدثه نفسه بالبقاء في ظل حكم اليهود ..

فماذا فعلت المسيحية تجاه هذا الجشع والحرص

اللذين سيطرا على اليهود ؟؟

لقد أرسل المسيح عليه السلام في بيئة مادية جشعة هي بيئة اليهود الذين تركوا شرائع الله التي أوصاهم بها أنبياؤهم . فقد بلغوا في عهد المسيح منتهى الحرص على جمع المال والافتتان في اكتنازه . وكان اغنياؤهم على أكبر جانب من القسوة وموت الضمير لا يألون جهداً في تحريف أحكام الشريعة

والولاة الرومان جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين : طبقة الأغنياء والأشراف الذين استأثروا بالطيبات والأموال ورغد العيش ، وطبقة الفقراء الذين حرموا من الكرامة وأبسط حقوق الإنسانية .

لذلك كان طبيعياً أن تتجه رسالة المسيح قبل كل شيء الى تطهير المجتمع اليهودي من تلك الرذائل ومحاربة هذه المادية البشعة ، وعلى ضوء هذا يمكننا أن نفهم ما أثر عن المسيح من مواعظ ووصايا تتعلق بالمال . (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله .)

« أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ليأت

ملكوتك ، لتكن مشيئتك ، كما في السموات كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم . »

« ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك . واعط الفقراء . فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني »

وقد كانت حياة المسيح عليه السلام وحياة حوارييه نموذجاً للزهد والتقشف وازدراء المال والدنيا ، وقد ذكر هذا كله في أسفار العهد الجديد التي تفيض بهذه الحكم والمواعظ التي تدعو الناس الى التخلي عن الحرص والطمع ، وتوصيهم بالبر ورعاية المحرومين من الفقراء والمرضى ..

الا أن معالجة المسيح عليه السلام وتلاميذه لمشكلة الفقر والظلم الاجتماعي اتخذت شكلاً أخلاقياً تربوياً مناسباً للبيئة التي عاش فيها المسيح ونادى برسالته فيها ، وكان لها أثر كبير في اجلاء الوثنية عن جزء كبير من العالم وتخليصه من قسوة المادية اليهودية .

كان شأن الإسلام كشأن الديانتين السابقتين في العناية بالفقراء ومحاربة ظلمهم واهمالهم ، لأن

شرائع الله لا يمكن أن تهمل هذه الفئة دون رعاية ولا عناية .

غير أن الإسلام سلك للوصول الى هذه الغاية النبيلة مسلكاً يختلف في تفاصيله وفي وسائله عما سبقه من الديانات وإن اتجه معها الى وجهة واحدة .

وأهم ما امتازت به طريقة الإسلام في معالجة مشكلة الفقر والغنى ميزتان :

أولاً : أنه لم ينظر الى هذه المشكلة على أنها مشكلة قائمة بذاتها بل متصلة بغيرها من شئون الحياة فلا بد لمعالجتها من معالجة صحيحة لكل شئون الحياة .

ثانياً : انه لم يقتصر على المواعظ والوصايا الأخلاقية فذلك مما لا يؤثر في سواد الشعب غالباً الا أن يكون معه قوانين واضحة تحدد الواجبات وتحميها دولة ترهب المسيئين وتضرب على يد الظالمين وتحمل الذين لا تؤثر فيهم المواعظ والوصايا على تنفيذ تلك القوانين .

ومن هنا نجد التشريع الإسلامي متماسكاً يتصل

بعضه ببعض ويتوقف نجاح كل قانون من قوانينه على تنفيذ القوانين الأخرى ، كما يتوقف تنفيذ قوانينه كلها على وجود الدولة التي تتبناها وتأخذ على عاتقها تنفيذها والسهر على تطبيقها .

لقد كان الاسلام حريصاً على عدالة التوزيع حرصه على ترقية الإنتاج ومصادر الثروة . ففي حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً أوليست له زوجة فليتزوج : أوليس له خادم فليتخذ خادماً ، أوليس له دابة فليتخذ دابة » .

وتوفير هذه الاحتياجات للإنسان أساس لتحقيق الكرامة الإنسانية وهي التي تقررها وتقدسها نصوص القرآن « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » وكتب الإمام ابن حزم يقول :

« ... وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك

ان لم تقم الزكوات بهم فيقام لهم :

أ ـ بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه .

ب ـ ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك .

جـ ـ وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة .

لقد ألزم ابن حزم الدولة أن ترعى الحقوق الإجتماعية للأفراد . وابن حزم يحدد الحد الأدنى للمستوى الاجتماعي فليس قيام الأغنياء بالفقراء أن يدفعوا في أفواههم لقمة عفنة معفرة بالتراب. لا . انه الغذاء والكساء والسكن ، والغذاء هو القوت الذي لا بد منه ، ولعلماء التغذية وحدهم أن يفسروا هذا النص على أساس ما يوجبه العلم للمرء من سعر حراري وقيمة غذائية وتوفير البروتين والدهون والكربوديدرات والمعادن والفيتامينات ... واللباس للشتاء والصيف ، واللباس كلمة شاملة تشمل الملابس الداخلية والخارجية وملابس البيت والشارع .. والمسكن يجب أن يكون متيناً قوياً لا تعبث به الريح ،

ولا تنفذ خلال ثغراته ذرات الرمل والحصى ولا تقتحمه العيون .

إن القوانين التي جاء بها الإسلام لتحقيق المعيشة الكريمة للفئات المحرومه والضعيفة تنقسم الى قسمين :

أ ـ القوانين التي نصت على الفئات التي تستحق التكافل .

ب ـ القوانين التي عينت الموارد المالية التي تعين على تحقيق التكافل لتلك الفئات .

فالفئات التي تستحق التكافل هي فئات يتميز أكثرها بالعجز والفاقه : وقد وضعت لها القوانين التي تعين أحكامها وهي :

قانون الفقراء ـ قانون المرضى ـ قانون العمران ـ قانون المقعدين ـ قانون الشيوخ والكهول ـ قانون المشردين ـ قانون اللقطاء ـ قانون اليتامى ـ قانون الأسرى .

وهناك فئات أخرى قد لا تتصف بالفقر ، ولا بالعجز ولكنها تحتاج الى المساعدات المالية وغيرها ونذكر من قوانينها ما يأتي :

قانون المساعدة :

وينطبق هذا القانون على المدين إذا عجز عن سداد دينه ، والمنقطع في بلد غير بلده ويسمى « ابن السبيل » .

وقانون الضيافة ، **وقانون المشاركة** . فإن من حق المواطنين الذين لا يجدون ما يشترون به الثمار إبان قطفها لغلاء ثمنها ان يأكلوا منها بغير ثمن .

وأصل ذلك مأخوذ من قولـه تعالى : « فكلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يأتون بثمار نخيلهم فيضعونها على باب المسجد ليأكل منها من لا يجد مالاً يشتري به شيئاً .

وقانون الماعون ، والماعون كل ما ينتفع به من شئون البيت وغيره ويستعيره الناس فيما بينهم كالفأس والقدر والدلو يقول الله تعالى « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

وقد قال الامام ابن كثير في تفسير هذه الآية :

أي لا أحسنوا في عبادتهم لله ، ولا احسنوا الى خلقه حتى ولا باعارة ما ينتفع به .

وقانون الاعفاف . وهو القانون الذي يوجب معاونة من يريد الزواج ولا يجد مالاً يستعين به .

وقانون الاسعاف . وهو قانون يفرض على المسلم إغاثة الإنسان الجائع والظمآن والمريض .

وهناك قانون الطوارىء . وهو القانون الذي يعطي للدولة الحق في أن تأخذ من أموال الناس ما يساعدها على درء الخطر وصد الغزو .

وقانون التعويض العائلي . وهو القانون الذي يعطي الرجل المتزوج أكثر مما يأخذ الرجل الأعزب ، ويعطي صاحب العيال أكثر مما يعطي من لا ولد عنده .

وهناك قانون النفقات . وهو يشمل نفقات الأبوين وأصولهما والأبناء وفروعهم ، والأخوة وفروعهم والأعمام وفروعهم والخالات والأخوال وفروعهم ، والزوجات والمطلقات والرقيق والحيوان .

والنفقة الواجبة في هذه الحالة هي نفقة الطعام

واللباس والسكن والتعليم والترويج والحاجات الاجتماعية المتعارف عليها . فالشخص الموسر عليه رعاية هؤلاء الأقارب اذا كانوا فقراء عاجزين لا يملكون شيئاً يستعينون به في شئون حياتهم .

وهناك **قانون الوصية** . فقد أجاز الاسلام للإنسان أن يوصي بثلث ماله لجهات البر والخير، ويجوز أن يوصي بأكثر من هذا اذا وافق الورثة على ذلك .

وهناك **قانون الغنائم** . فالغنائم التي تؤخذ في الحرب يخصص جزء منها للتكافل الاجتماعي .

وهناك **قانون الركاز** . وهو ما يوجد في بطن الأرض من المعادن والنقود فقد جعل الاسلام فيه نصيباً معيناً ينفق منه على التكافل الاجتماعي .

وهناك **قانون النذور** . يقول الله تعالى : « وليوفوا نذورهم » فاذا نذر الإنسان نذراً وجب عليه الوفاء بهذا النذر وانما يكون ذلك بانفاقه على الفقراء والمساكين واليتامى .

وهناك **قانون الكفارات** . فقد أوجب الإسلام على المسلم حين يرتكب بعض المخالفات الدينية أن

يطعم عدداً من المساكين والفقراء ويكسوهم . وهذا مورد كبير من موارد التكافل الاجتماعي في الإسلام لا ينقطع في يوم من الأيام .

وهناك **قانون الأضاحي** . وهي الذبائح التي يذبحها المسلمون في أعياد الأضحى . وقد شرع الإسلام للمضحي في هذا اليوم أن يتبرع بثلث هذه الأضحية للفقراء .

وهناك **صدقة الفطر** . وهي الزكاة التي يخرجها كل مسلم ومسلمة صغيراً وكبيراً في آخر يوم من أيام رمضان .

وهناك **الخزانة العامة للدولة** . بالنسبة لمواردها المتعددة من زكاة ، وخمس الغنائم والركاز ، وخراج أرض ، وجزية رءوس ، وتركة من لا وارث له .

وهناك **قانون الكفاية** . فقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء ، وأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس . وقال

صلى الله عليه وسلم « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له . »

يقول المؤرخ المعاصر هـ . ج . ولز .

لقد ساد الإسلام لأنه خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً تسلب وتظلم وكان يهب بني الانسان نظاماً أفضل من أي نظام آخر .

لكن أين يقف الإسلام بين النظم والمذاهب الاقتصادية المعاصرة ؟

لم يكن الإسلام رأسمالياً حين أقر الملكية الفردية ، لأنه حال دون تجمعها في يد واحدة ، أو أيد قليلة حين وضع نظام الأرث فعمل على تفتيت هذه الملكية ثم حملها ـ أي الملكية الفردية ـ حقوق الجماعة وجعلها وظيفة اجتماعية ، واغدق الإسلام الحرية على الفرد بشرط ألاَّ يضار بهذه الحرية غيره من الجماعات البشرية ، وأمره بطاعة ولي الأمر إذا ما التزم ولي الأمر طاعة الله وحدوده .

كما أن الاسلام ليس اشتراكياً بالمعنى العلمي

هذه الكلمة لأنه لم يحل بين الفرد وحقه في التملك والحرية .

وبالتالي فلا صلة بين الإسلام والحضارة الغربية في نظامها الرأسمالي أو الماركسي .

فالاسلام دين ودولة والحضارة الغربية تفصل بين الدين والدولة ، والإسلام سموروحانية ، والحضارة الغربية تجحد الروح ولا تقر إلا بالمادة .

والإسلام يقرر حقاً للفرد على المجتمع ويفرض عليه حقوقاً تجاه هذا المجتمع، والحضارة الغربية قلقة متعثرة تمكن للفرد أحياناً حتى يطغى ، وتنكر وجوده أحياناً حتى يموت ويشقى .

والإسلام تكافل ومحبة والحضارة الغربية بغضاء وكراهية . والإسلام فوق ذلك كله نظام إلهي للانسانية . والحضارة الغربية كغيرها من الحضارات التي عرفها التاريخ ولسوف تنقضي كما انقضى غيرها مهما بلغت من القوة .

« صبغة الله ...

ومن أحسن من الله صبغة .. »

اقطـاع ... واقطـاع

لقد أنقذ الإسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد ، وحررهم من سلطة الاقطاعيين الذين كانوا يعتبرون الفلاحين عبيداً لهم كما كانوا عبيداً للأرض .

[دوزي]

الاقطاع معناه في الشريعة الإسلامية تمليك « الامام » أرضاً لا مالك لها لانسان يقوم بعمارتها واستغلالها على أن يتم ذلك خلال مدة معينة ، فان انقضت ولم يفعل شيئاً من ذلك استردها الامام منه وأعطاها لغيره ...

هذا هو الاقطاع الذي جرى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن بعدهم ثم أطلق الاقطاع ـ بعد ذلك ـ على منح « الامام » بعض الناس غلة أرض من أراضي الدولة تقديراً لجهادهم في الجيش ، أو لعظيم فائدتهم للأمة ، واقطاع الأراضي لا يكون الا في الأراضي التي

ليست مملوكة لأحد ولو كانت خراباً ، وليست من المرافق العامة التي يحتاج اليها سكان المدن أو القرى أو الصحراء ، وليس فيها معدن من المعادن التي يحتاج اليها الناس ، وما عدا هذه الأنواع من الأراضي فمن حق « الامام » أن يقطعها لمن شاء ولا يجوز له أن يفعل ذلك محاباة بل عليه أن يبتغي في ذلك الأنفع للأمة والصالح العام ..

هذا هو الاقطاع الذي عرفه الإسلام ، وهذا هو تعريفه كما نصت عليه أحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . فمتى . . . عرف المسلمون الأوائل نظام الاقطاع وما هي الأسباب التي دعت إليه في تلك الأيام. ؟

كانت بلاد العرب حين ظهر الإسلام ما بين أرض مملوكة لأصحابها وما بين أرض لا مالك لها ومنها ما كان مرعى للابل والأغنام . ولما بدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظم شئون الدولة الإسلامية كان مما اتجهت إليه عنايته اصلاح الأراضي الميتة التي لا مالك لها ، فأعلن أن من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وتقدم اليه بعض الناس يطلبون منه أن يمنحهم من تلك

الأرض ما يقومون بعمارتها ففعل ، وسمى عمله هذا « اقطاعاً » .

وقد أقطع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزبير بن العوام وبلال بن الحارث وعمرو بن حريث وعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وغيرهم بعض هذه الأراضي لاحيائها وعمارتها . ولما بدأت المعارك بين الدولة الإسلامية ، ومملكتي الفرس والروم ـ عقب وفاة الرسول ـ انتهت تلك المعارك باستيلاء الإسلام على أكثر أقطار تلك المملكتين ، ووجدت الدولة الإسلامية نفسها أمام أراضٍ واسعة ليس لها مالكون . . .

وهنا قضت سياسة الدولة الإنشائية باحياء تلك الأراضي وإعمارها ، فأقطعها الخلفاء لمن يقوم عليها ويحسن استثمارها .

ذلك هو أصل اقطاع الأراضي في الدولة الإسلامية وهو كما ترى عمل عمراني أدى الى تقديم الخدمات المالية للدولة وثروتها الاقتصادية .

وفي أكثر الحالات لم يخرج الإقطاع عن حدوده الشرعية ، وهو أن تكون الأرض المقطعة أرضاً

مواتاً أو من أراضي الدولة ، ويكون ذلك لمن يحسن عمارتها واستغلالها .

وهل وضع الإسلام شروطاً خاصة لتمليك الأرض على سبيل الاقطاع ؟ .. نعم

لم يكن تمليك الأرض بالاقطاع والاحياء بدون شروط ولا قيود ، فقد منعت الشريعة الإسلامية احتجازها أكثر من ثلاث سنين دون عمارة ، أو اقتناءها دون القدرة على عمارتها ، فقد حدث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقطع بلال بن الحارث المزني قطعة من الأرض فلم يستطع عمارتها ، ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : يا بلال انك استقطعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرضاً طويلة عريضة فقطعها لك وإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يمنع شيئاً يسأله وأنت لا تطيق ما في يديك فقال : أجل . فقال : فانظر ما قويت عليه فأمسكه وما لم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين .

أو ليس عمل عمر بن الخطاب هذا حقق قبل عشرة ونصف من القرون ماتمنى الفيلسوف الانجليزي

« هربرت سبنسر » بفكره الثاقب في العصر الحاضر..؟

هذا عن الاقطاع في الإسلام فماذا عن الاقطاع في أوروبا ... ؟

ان الاقطاع الذي عرف عند الغربيين في القرون الوسطى كان عبارة عن تمليك السيد لأراضٍ واسعة بمن عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان تملكاً مطلقاً يبيح له التصرف فيها وفيهم غير مقيد بقانون ولا خلق ، واذا باعها مالكها لآخر انتقلت ملكيتها وفلاحوها وحيواناتها الى المالك الجديد،وهذا ما يأباه الإسلام في تشريعه وخلت منه حضارته في مختلف عصورها . فالفلاح في نظر الاسلام إنسان «حر» له كرامته ، وله شخصيته وأهليته الكاملة ، ولا ارتباط له بالأرض التي يعمل فيها ـ ان لم يكن مالكاً لها ـ الا ارتباطه بأي عمل يتعاقد عليه مع غيره

ولم يقع قط في تاريخ الحضارة الإسلامية أن أرضاً بيعت فانتقل الى المالك الجديد ملكية فلاحيها. والذي كان يقع هو أن الفلاحين « المزارعين »

كانوا يخيرون بين ان يستمروا في زراعتهم للأرض مع المالك الجديد وبين أن يعملوا في أرض أخرى ، وحقهم في حرية الاختيار هذا حق ثابت لهم بموجب نظام العقود في الشريعة الإسلامية ومن ثم ... فان الاقطاع الذي عرفه الإسلام في مبدأ ظهوره شيء آخر يختلف تماماً عن الاقطاع الذي عرفته أوروبا في قرونها المظلمة .

ان الاقطاع الذي عرفه الإسلام كان للتعمير

أما الإقطاع الذي عرفته أوروبا فقد كان اقطاعاً يتسم بالهمجية واستعباد الإنسان ، والنزول به الى مرتبة وضيعة تمحو ما بقي من آدمية ، وتخرب مرافق الحياة التي تقوم عليها حضارة البشرية مادية ومعنوية .

- ان العلاقة الوحيدة بين الإقطاع الذي عرفه الإسلام والإقطاع الذي حكم أوروبا فترة طويلة من الزمن علاقة اسمية لا وجود لها في الشريعة الإسلامية ...

ولكن كيف نشأ هذا الإقطاع الأوروبي ؟..

لما تقوض نظام الأمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس للميلاد انهار في أوروبا صرح الوحدة العمرانية والسياسة الاقتصادية ، وانفصمت الأخوة التي كانت تربط بين مختلف الأقطار والشعوب ، وانقسمت بلاد أوروبا كلها قطعاً صغيرة وتجزأ كل قطر جغرافي الى أجزاء متعددة ، وهكذا ابتدأ في أوروبا ذلك النظام الخاص الذي يصطلح عليه بنظام الإقطاعية. وفيما يلي تعرض لتلك المظاهر التي صاحبت هذا النظام الذي قام في أوروبا اثر انحلال الأمبراطورية الرومانية .

أ ـ أصبح تملك الأرض وحيازتها أساساً للقوة وعلو الكلمة . فاستأثر بالسلطة والسيادة أصحاب الأراضي الذين أخذوا هذه الأرض منحة من الحكام الذين استخدموا هؤلاء الاقطاعيين في تسخير المزارعين وما تحت أيديهم من الحيوانات والماشية .

فأصبح مثل المجتمع في هذه التفرقة كمثل (السلم) الجالس على درجة من درجاته إلّه لمن تحته

وعبد لمن فوقه . وعلى رأسهم جميعاً أسرة الحاكم وتحت أقدامهم عامة الشعب الذين سلبوا كل حق وحرية .

ب ـ انضمت الكنيسة المسيحية التي كانت تنطق باسم الآله وتخاطب الناس بلسانه دون سند شرعي الى جهة الإقطاع ومساندة نظامه واعمدته . فمدت يد المساعدة ـ بالنصوص المخترعة الى النبلاء والإقطاعيين وباركت عدوانهم المدبر على طبقات الشعب المحرومة الجائعة ، واعتبرت كل خروج على هذا النظام كفراً وخطيئة .

جـ ـ ولما لم تكن هناك سلطة مركزية وحكومة قوية فقد اهملت جميع وسائل العمران والتجارة وانقطعت أسباب العمل ، وفقد الناس الأمن والراحة وراحوا يدورون في حلقة مفرغة من الضياع والحرمان والمذلة .

د ـ انحصرت الصناعات البسيطة والتجارات المحدودة في اسر خاصة ومنع غيرها من الاحتراف والعمل فيها فأدى كل ذلك الى انتشار الكساد

والبطالة بين غالبية الشعب التعسة المحرومة .

فكان من الطبيعي في ظل هذه الظروف القاسية أن تصبح الأرض وما فوقها من الناس والماشية ملكاً لهذه الأقلية المترفة المحظوظة .

يقول « دوزي » المستشرق المعروف في كتابه تاريخ الأندلس : لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد من العبودية والظلم ، وحررهم من سلطة الإقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين ـ لا عبيداً لهم فحسب ـ بل عبيداً للأرض أيضاً .

لقد كان الفتح العربي حسنة بالنسبة لأسبانيا . فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، وأزال قسماً كبيراً من الآلام التي كانت ترزح تحتها البلاد منذ قرون طويلة . فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات ، وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد وأقنان الأرض ، ووزعت الأراضي المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان

تحقيق الملكية الصغيرة مصدراً للسعادة وسبباً لازدهار الزراعة في اسبانيا العربية ثم يقول : لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية :

خفضت الضرائب تخفيضاً عظيماً بالنسبة لما كانت عليه أيام الحكام السابقين ، وصودرت الأراضي من أصحابها الأغنياء حيث كانت تشكل اقطاعات عظيمة جداً ، تزرع من قبل العبيد والاقنان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد (العبيد) يعملون بحماسة ، وينتجون أفضل المحصول .

لقد كان الاسلام ثورة .. ولكنها ثورة العدل على الجور ، والكفاية على الفقر وكان الاقطاع بمعناه الاسلامي قطيعة للبلادة التي تقعد بالهمم ودعوة للعمل في أرض تقول : أين البذور والمطر ؟!

الربانيون أصحاب الوقف

إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ عن ثلاث :

- صدقة جارية . . .
- أوعلم ينتفع به . . .
- أوولد صالح يدعوله . . .

« محمد رسول الله »

الوقف تضحية بصالح الفرد في سبيل المجموع ويدل دلالة تاريخية على تأصل الإيثار والرحمة في ضمير الأمة المسلمة والمجتمع المسلم ..

ان الفرد المؤمن كان يخرج عن ملكه طائعاً مختاراً ايثاراً لإخوانه الذين لا يملكون ، وابتغاء رضاء الله الذي استخلفه على ما تحت يده ليبلوه فيما آتاه .

وعند مراجعتنا لنص من نصوص هذه الأوقاف نحني رءوسنا اعجاباً لهذه التضحية والايثار الذي كان شائعاً في كل جانب من جوانب المجتمع الإسلامي . وهذا نص أحد عقود الوقف التي صدرت عام ٤٠٢هـ أي قبل ان يسمع الناس شيئاً عن التكافل والاشتراكية بقرابة ألف عام .

« بسم الله : هذا ما أوقف الفقيه عبد الله بن محمد بوقفيته هذه الضيعة بحدودها وحقوقها وطائرها ووعرها وبنائها ومعابرها وخبائها وشجرها ومجازها وكل ما هو حق فيها لها . وكل حق فيها خارج منها حبساً ثابتاً ما دامت الأرض ومن عليها » .

فإلى أي مدى نجح نظام الأوقاف في تحقيق العدالة الإجتماعية بين الناس ؟

لقد استفاد المجتمع من هذه النزعة الجماعية الخيرة الحرة خدمات شتى ... فقد كان الفرد يتنقل في رحاب ديار الإسلام من أقصى المغرب الى حدود الصين لا يحس غربة ولا يفتقد حاجة فعلى الرغم من صعوبة المواصلات بحكم ظروف ذلك العصر فقد كانت لفتة الإسلام المعبرة لرعاية « ابن السبيل » وهو المسافر الذي تقطعت به السبل ونفد ماله بمثابة توجيه رشيد لرعاية الطرق ووسائل المواصلات ومحطات الاستراحة واحتياجات المسافرين.

ويتحدث « الاصطخري » مثلاً في القرن الرابع الهجري عن أهل ما وراء النهر ، وهو نهر سيحون في آسيا :

واما سماحتهم : فان الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة . ما ينزل أحد بأحد الا كأنه رجل دخل دار نفسه لا يجد المضيف من

طارق – في نفسه كراهة بل يستفرغ مجهوده في اقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولا توقع مكافأة .

وبحسبك أنك لاتجد فيهم صاحب ضيعة الا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنازل للأضياف . فتراه في عامة دهره متأنقاً في اعداد ما يصلح لمن طرقه . فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوه .

ولقد شهدت منزلاً « بالسغد » ضربت الأوتاد على باب داره فبلغني ان بابها لم يُرد منذ مائة سنة وأكثر لا يمنع من نزولها طارق وربما نزل بغتة من غير استعداد . المائة والمائتان بدوابهم وحشمهم فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ما يكفيهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً لذلك فقد أقيم على كل عمل من يشتغل به واعد ما يحتاج اليه على دوام الأوقات بحيث لا يحتاج معه الى تجديد أمر عند طروقهم . وصاحب المنزل من البشاشة والإقبال والمساواة بحيث يعلم كل من شاهده سروره بذلك وسماحته .

ولم تكن رسالة الأوقاف خاصة في ناحية واحدة

من نواحي البر والخير . فقد كانت علاوة على ما ذكرنا من توفير العيش للجائعين والمحرومين وعابري السبيل . تعني بانشاء المستشفيات والمدارس وغيرهما من الخدمات الإنسانية التي تتطلبها حاجات المجتمع ومطالبه المختلفة .

وقد بنى المسلمون دور الشفاء من أموال هذه الأوقاف ورصدوا في بيت المال ما يغاث به الملهوف ويعان به المسافر ويحرر به الرقيق . ورصدت الأوقاف لإقامة مصحات يعالج فيها « الملك والمملوك » والكبير والصغير والحر والعبد . وكان المريض اذا ما برىء وخرج تلقى منحة وكسوة ، وصرف العلاج والأدوية للذين يفضلون البقاء في منازلهم من المرضى ، وقد قدرت الحالات التي يعالجها أحد المستشفيات في اليوم الواحد بعدة آلاف حالة،والحقت ببعض المستشفيات مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة .

كذلك رصدت الأوقاف لاقامة الحمامات العامة وقد ورد في وثيقة أوقاف الغورى على عمائره أن

الحمام الذي ألحق بهذه العمائر يشتمل على بيت أول به حوضان وبيت حرارة به أربعة أحواض وجرن وخلوة ومغطس مفروش بالرخام ، كما أن المدارس التي أقيمت بأموال الأوقاف لا يزال بعضها قائماً إلى الآن في مختلف بلاد الإسلام .

ان الإنسان يحني رأسه اعجاباً لتلك الدوافع النبيلة التي كانت تفيض بها قلوب المسلمين في تلك الأزمنة الماضية البعيدة .

فقبل أن يسمع الناس بالعدالة الإجتماعية والإشتراكية وقبل أن يعرف العالم حقوق الإنسان كان الإسلام قد فرغ من هذه القضايا كلها منذ أربعة عشر قرناً .

ان رعاية الدولة الإسلامية لم تقف عند الإنسان وحده . وانماتجاوزت هذه الدائرة دائرة أوسع منها واشمل فالرفق بالحيوان شعيرة من شعائر الإيمان عند المسلم . وإذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرر أن رجلاً دخل الجنة لأنه سقى كلباً أشرف على الهلاك من شدة الظمأ . وان امرأة دخلت النارلأنها حبست قطة من القطط دون طعام ولا شراب . فإن المسلمين

الذين يتخذون من نبيهم المثل والقدوة قد وعوا هذه الحقائق النبيلة فترجموها عملياً في واقع حياتهم ودنياهم .

ومن ثم فنحن لا نعجب حين نطالع حجج الأوقاف فنرى وقفاً رصدت أمواله لإطعام الكلاب والقطط الضالة التي ليس لها صاحب استنقاذاً لها من الجوع حتى تستريح بالموت أو الاقتناء. يحدث هذا قبل أن يسمع العالم عن جمعيات الرفق بالحيوان التي جاءت تقول للناس ما قاله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك بأربعة عشر قرناً من الزمن . . .

لقد تنوعت الأوقاف واتخذت صوراً كثيرة تكاد تشمل كل ذي حاجة وعلة من بين أفراد المجتمع والناس ، فهناك أوقاف لإعانة الفتيات على الزواج . .

وأوقاف لختان الأطفال .

وأوقاف للتعليم وأوقاف للحج .

وأوقاف ينفق منها على اليتامى .

وهناك أوقاف بلغت الغاية في دلالتها الإنسانية ورقيها . فهناك وقف تشتري منه صحاف الخزف الصيني . فكل خادم كسرت آنيته وتعرض لغضب

مخدومه له أن يذهب الى دائرة الأوقاف فيترك الاناء المكسور ويأخذ أناء صحيحاً بدلاً منه وبهذا ينجو من غضب مخدومه ...

وهناك وقف يسمى وقف الأعراس وهو وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح يستعير منه الفقراء ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم. وبهذا يتيسر للفقراء أن يظهروا يوم عرسهم بحلة لائقة ولعروسهم أن تتجلى في حلية رائعة حتى يكتمل الشعور بالفرح وتنجبر الخواطر المكسورة .

وهناك وقف يؤسس من ريعه بيت ويعد فيه الطعام والشراب وما يحتاج اليه الساكنون ـ تذهب اليه الزوجة التي يقع بينها وبين زوجها نفور وتظل آكلة شاربة الى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس فتعود الى بيت الزوجية من جديد .

وهناك وقف ينفق منه على عدة مؤذنين من كل رخيم الصوت حسن الأداء فيرتلون القصائد الدينية طوال الليل بحيث يرتل كل منهم ساعة حتى مطلع الفجر سعياً وراء التخفيف عن المريض الذي ليس

له من يخفف عنه وايناس الغريب الذي ليس لـه من يؤنسه .

وهناك وقف يسمى وقف « خداع المريض » وهو وقف يقوم على معالجة المريض بالإيحاء ويكون ذلك بأن يقف اثنان من الممرضين قريباً من المريض بحيث يسمعهما ولا يراهما فيقول أحدهما لصاحبه : ماذا قال الطبيب عن هذا المريض فيرد عليه الآخر . ان الطبيب يقول انه لا بأس به فهو سيشفى ان شاء الله-وربما نهض من فراشه بعد يومين أو ثلاثة أيام . . وهكذا سلك الواقفون كل مسالك الخير فلم يدعوا جانباً من جوانب الحياة دون أن يكون للخير فيه نصيب .

وهم بهذا انما يصدرون عن احساسات انسانية عميقة تنفذ الى مواطن الحاجة التي تعرض للناس في كل زمان ومكان مترسمين في ذلك كله قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ عن ثلاث . صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولـد صالح يدعو له . .

وَاقِعُ الشُيُوعيّة

لقد قتل «ستالين» الملايين باسم الشعب .
ودمر الشعب الروسي باسم الحزب . وقد
آن الأوان لكشف حقيقة هذا السفاح الذي
خارت قواه حين دقت طبول الحرب....

نيكيتا خروشوف

لقد اتيحت لاتباع المذهب الشيوعي فرصة لم تتح قبل لمذهب من المذاهب الدينية والاجتماعية لأنهم ملكوا أزمة الحكم ، وتغلبوا على كل عقبة قامت أو تخيلوا أنها قائمة في طريق مذهبهم .

والواقع ـ بعد هذه الفرصة ، وبعد مضي أكثر من نصف قرن على قيام الحكم الشيوعي في روسيا ـ يشهد بأن الفلسفة المادية التي يبشرون بها لم تصنع أكثر مما يصنع كل قادر على السلطة مالك زمامها ..

لم يصنع الشيوعيون أكثر مما صنع المذهب النازى في المانيا حين كان يحكمها هتلر ولم يصنع الشيوعيون أكثر مما صنع موسوليني في ايطاليا الفاشية ، ولم يصنع الشيوعيون أكثر مما صنع اليابانيون في امبراطوريتهم المشرقة . إن التقدم الذى أحرزته روسيا كان تقدما صنعته السلطة والقوة الحاكمة ـ وفيما عدا التصنيع والتسليح ـ يقال على الأجمال : ان التجربة الشيوعية قد نجحت بمقدار ما تركت من المذهب الشيوعى وابتعدت عن جمود نظرياته وفلسفته ..

فالمذهب الشيوعي أصلاً لا يعترف بالدين ولا

بالوطنية ، ولا بالأسرة ولا بالملكية الخاصة ـ فإذا نظرنا إلى الواقع المشاهد اليوم في مختلف البلاد الشيوعية فاننا نجد هذا الواقع يضطر مرغماً للاعتراف بهذه الحقائق التي تنكرها فلسفته الخاطئة ...

فالزعماء الشيوعيون قد اضطروا على الرغم منهم الى الاعتراف بالشعائر الدينية في مجتمع حكموه حوالى خمسين سنة[1] . وما اضطرهم إلى ذلك إلا شعورهم بموت الضمائر التي تعول على الفلسفة المادية .. واعترفوا بالوطنية لنفس هذا السبب خاصة بعد أن قامت الحرب العالمية الثانية التي يخوضها الحزب الشيوعي لأول مرة ورأوا كيف يقاتل جنودهم بلا هدف ولا غاية فأثاروا حماستهم بحماية الوطن وتحريره ..

وقد سمعنا كلامهم في مؤتمر الفلسفة عن الأسرة وقداستها وقيام المجتمع والوطن على دعائمها وهم الذين تقول فلسفتهم بالغاء الأسرة واعتبارها أثراً من آثار البورجوازية والرأسمالية ..

ورأيناهم بعد ذلك يبيحون الأرث والملكية الخاصة بعد أن كانت هذه الملكية خيانة وجريمة شيوعية .

---

(١) وهو اعتراف شكلي للدعاية .

وسمعناهم بعد ذلك يتحدثون عن جرائم الاختلاس والرشوة ، وضعف الانتاج والثروة ، والأهمال في ادارة المصنع والمزرعة ، حتى أن روسيا لم تجد عندها من الحبوب ما يكفي لاطعام شعبها بقية السنة ، فاشترت من كندا قمحاً بخمسمائة مليون من الجنيهات بالعملة الصعبة ».

ورأيناهم بعد ذلك يتهمون « خروتشوف » بالتقصير في واجباته العامة ، ويتهمونه بالمحسوبية وسوء استعمال السلطة والغطرسة والرفاهية بعد أن فتح لروسيا آفاقاً جديدة ، وعقد صداقات كثيرة بين بلاده وشعوب العالم المختلفة ثم ينسى هذا كله في لحظة ، وينقل في هدوء إلى متاهات الظلام والعزلة ..

فإذا انتقلنا إلى وسائل الانتاج والزراعة رأينا عجبا مما يحدث في البلاد الشيوعية فالناس يهاجرون من البلاد الشيوعية بحثاً عن اللقمة ، وفي المانيا الشرقية

* وقد اتفق بريجنيف في لقاء موسكو الأخير مع نيكسون رئيس الولايات المتحدة على بيع روسيا قمحا قيمته أكثر من ثمانمائة مليون دولار خوفا من المجاعة التي تهدد شعب الاتحاد السوفيتي .

لم تستطع الحكومة أن توفر آلات الحرث والزراعة فعادت إلى الوسائل البدائية القديمة ، وفي بلغاريا اعترفت الحكومة بأن انتاج اللبن والبيض والصوف غير كاف لاطعام الجماهير الجائعة ، وفي تشيكوسلوفاكيا أعلن رئيس الدولة نقص كميات كبيرة من المواد الغذائية فقام الطلبة في « براغ » بمظاهرات صاخبة ، وفي المجر اعترف كانوس كادار رئيس الوزراء بوجود انشقاق في الحزب الشيوعي بسبب ارتفاع أسعار المواد الضرورية وفي رومانيا أعلن رئيس الوزراء الغاء وزارة الزراعة لفشلها في مهمتها الرئيسية وأبقى على المزارع الفردية لنجاحها أكثر من المزارع الجماعية . وقد أعلن خروتشوف في عام ١٩٦٩ قبل أن يعفى من منصبه — زيادة أسعار المواد الغذائية بنسبة ٣٠ بالمئة .

وقد بدأت حرب المنشورات في الاتحاد السوفيتي منذ أسابيع قليلة « ويقول واحد من هذه المنشورات : إن أجر العامل في الاتحاد السوفيتي لا يزيد على ثلث ما يجب أن يكون عليه الأجر الحقيقي للعامل . وهو على الرغم من هذه الخسارة يدفع كثيراً من الضرائب .

وأين تنفق كل هذه الأموال ؟ ينفقها رجال الدولة في الكرملين .. ينفقونها على حياتهم المترفة ، وعلى بيوتهم الريفية المكيفة ، وعلى سيارات الليموزين الفخمة . ينفقونها على مطالبهم الخاصة التي يحصلون عليها من الخارج في غياب الشعب ، وعلى استراحاتهم الخاصة ومستشفياتهم الخاصة . انهم يعيشون في مستوى أرفع بكثير من مستوى القياصرة ! ويستغلون الطبقة العاملة التي لا تستطيع توفير حاجاتها الضرورية ..

ويقول منشور آخر : لماذا يأتي الشعب السوفيتي في حساب درجة المعيشة في الدرجة السادسة والعشرين بين شعوب العالم ؟ ولماذا يتقاضى العاطل عن العمل في الغرب أربعة أضعاف ما يتقاضاه العامل السوفيتي

يحدث هذا اليوم في روسيا . كما حدث قبله في المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والنتيجة الحتمية لهذه الثورة هي الانفجار الذي لا بد من وقوعه والثورة التي تأكل الثورة .. ! ! !

• حدث هذا في عام ١٩٦٢ .

وثيقــة ... للتــاريخ

« فأنها لا تعمى الأبصار
ولكن تعمى القلوب التي
في الصدور ... »

قرآن كريم

وبعد ..

« فان احق ما انتهزت فرص أجره العزائم ، واحرزت مواهب بره الغنائم ،وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم ، وأولى ما توجه اليه كل متوجه وقام اليه كل قائم ، ما عادت بالخيرات عوائده ،وزادت في المسرات زوائده ، واستمرت على الآباء فوائده ، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده ، وهي الأوقاف العميم برها ، المقيم أجرها ، الجسيم وفرها ، الكريم ذخرها ، فهي الحسنات التي هي الجنان ، والقربات التي فيها رضوان الرحمن ، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان ، والنفقات التي هي بحور الأجور واللؤلؤ والمرجان ... ولا يخفى ما فيها من ادخال السرور على المريض الفقير ، وايصال الحبور الى قلبه الكسير ، واغنائه بأيوائه ومداواته ، الذى لا يعبر عن وفور اجرها بتعبير ، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار ، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الأيراد والاصدار ، وأقرضه أحسن القروض ، على حسب الأمكان والاقتدار . وانتهز الفرصة بالاستباق ، وأحرز باغتنام اجرها قصب السباق ،

فساعد الفقير المسلم على إزالة ألمه ، ومداواة سقمه . مساعدة تنجيه غدا من عذاب ربه الخلاق . ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى ، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلما ولا هضما ، والحسنة التي لا تبقى لذنبه هما . ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل ، السلطان الملك المنصور العالم العادل. فتقدم امره الشريف بوقف البيمارستان المنصورى ... (وهنا تذكر الوقفية وصفه ومكانه) لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين ، بالقاهرة ومصر وضواحيها ، من المقيمين بها والواردين اليها من البلاد والاعمال على اختلاف اجناسهم واوصافهم ، وتباين امراضهم واوصابهم ، من امراض الأجسام قلت او كثرت اتفقت او اختلفت ، وامراض الحواس خفيت او ظهرت ، واختلال العقول التي حفظها اعظم المقاصد والأغراض ، واول ما يجب الأقبال عليه دون الأنحراف عنه والأعراض ، وغير ذلك مما تدعو حاجة الأنسان الى صلاحه واصلاحه ، بالأدوية

والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب ، والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به ، يدخلونه جموعاً ووحدانا ، وشيوخاً وشباناً ، وبلغاء وصبياناً ، وحرماً وولدانا يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم الى حين برئهم وشفائهم ، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ، ويفرق للبعيد والقريب ، والأهلي والغريب ، والقوى والضعيف ، والدنى والشريف ، والعلى والحقير ، والغنى والفقير ، والمأمور والأمير ، والأعمى والبصير ، والمفضول والفاضل ، والمشهور والخامل ، والرفيع والوضيع ، والمترف والصعلوك ، والمليك والمملوك . من غير اشتراط لعوض من الأعواض ، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم ، وأجره الكريم ، وبره العميم ، وأمره باجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى من الأطباء والكحالين ، والجرائحيين ، وطبافي الشراب والمزاور والطعوم ، وصانعي المعاجين والأكحال ، والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة ، وعلى القومة والفراشين

والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك ، وعلى ما قدم بمدواة المرضى من الاطعمة والاشربة والادوية المركبة والمفردة والاكحال والشيافات ، والمعاجين والمراهم ، والأدهان والشربات والفرش والقدور والالات المعدة للانتفاع بها في مثله . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى اليه من مشموم في كل يوم ، وزبادي فخار برسم اغذيتهم ، وأقداح زجاج وغرار برسم اشربتهم ، وكيزان واباريق فخار ، وزيت للوقود عليهم ، وبماء من بحر النيل المبارك باسم شربهم واغذيتهم ، و . . لأجل تغطية اغذيتهم عند صرفها عليهم ، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم اياها في الحر . ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف في غير اسراف ولا اجحاف ، ولا زيادة على ما يحتاج اليه ، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب . ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة ، يكون احدهما خازنا لمخزن الأدوية ، يتولى تفرقة الأشربة

والاكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات المأذون له في صرف ذلك من المباشرين .ويكون الآخر امينا يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته اقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان . ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك . ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ له للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك . ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر . ويغطيها ويوصلها الى المريض الى ان يتكامل اطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف له بكرة وعشيه . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى ، وهو مخير في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط . يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان . مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب . او باذن الناظر في

التناوب ، ويسألون عن احوالهم وما يتجدد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستوروروق ليصرف على حكمه ، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان. مجتمعين او متناوبين ، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة اعين الرمداء بهذا المارستان ، ولمداواة من يرد اليهم به من المسلمين بحيث لا يرد احد من المسلمين الرمداء من مداوة عينيه بكرة كل يوم . ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها ، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم . وان كان بينهم من به قروح اوامراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي . راجعه واحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه . ويراجعه في احوال برئه وشفائه ، ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخا للأشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمصطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للأشتغال عليه بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه اليه . وليكن جملة اطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومة والفراشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان ، ما يرى صرفه الى كل بحسب عمله ، على ان كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلفين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف اماكنهم واصلاح شئونهم ، والقيام بمصالحهم ، على ما يراه من العدة والتقدير، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة اليه في ذلك بحسب الزمان والمكان .

ويصرف الناظر الى ما تدعو الحاجة اليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء ، فيصرف ما يحتاج اليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه ، وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية ، ومن كان مريضا في بيته وهو فقير كان للناظر ان يصرف اليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا المارستان ، من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به ، فإن مات بين اهله صرف اليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله الى

مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله . ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا المارستان المبارك صرف الناظر اليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة ، بحسب الحال من غير زيادة تقتضى التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم ، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدى اليه اجتهاده بحسب ما تدعو اليه الحاجة .

وعلى الناظر في هذا الوقف ان يراعى تقوى الله سبحانه وتعالى سرا وجهرا ، ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف ولاقوياً على ماهواضعف منه ، ولا متأهلا على غريب ، بل يقدم في الصرف اليه زيادة الأجور والثواب والتقرب الى رب الأرباب .. »

هل عرفت البشرية رجالا من هذا النوع ؟

إنه الاسلام . .

الاسلام . . . وكفى أن تنطق به اسما وتؤمن به قولا وعملا .. وتعيش به بين الناس رجلا ! ! !

كيفَ بَدأَ الرِّقّ

لم يكن هناك خيار لأحد كانت العبودية فلسفة في مجال الفكر ، وغاية من نظام الحكم ، وقدراً عند المتكلمين باسم الدين . . .

جيته

القسم الثاني : موقف الإسلام من الرق

كان الرق نظاماً طبيعياً شائعاً عند اليونان ، وليس أدل على تغلغل الاسترقاق في نظامهم الإجتماعي والسياسي من إقرار فلاسفتهم له وفي مقدمتهم أرسطو وأفلاطون ، أما أفلاطون فقد اعتبره عملاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه ، وكان قاسياً في النظام الذي سنه لعقاب الأرقاء في جمهوريته الفاضلة التي كان يحلم بها ، فالعبد الذي يتطاول على حر غير سيده جزاؤه أن يسلم لهذا الحر ليقتص منه بما يشاء وكيفما يشاء ، وفي رأيه : ان الرحمة اذا وجبت بالأرقاء فإنما تجب لا مراعاة لأنهم أناس يستحقون الرحمة بل لأنهم حقراء اخساء لا يليق بالأحرار أن يتنزلوا الى عقابهم وايذائهم ...

وأما أرسطو فقد ذهب الى أن الله قد خلق فصيلتين من الناس . فصيلة مدها بالعقل والارادة وهم اليونان ليكونوا خلفاء في أرضه وسادة على خلقه . وفصيلة أخرى لم يمدها الا بقوة الجسم ـ وهم الذين ليسوا من اليونان ، وقد خلقهم الله ليكونوا عبيداً للسادة اليونان ، وقرر أرسطو : ان كل الحروب التي

يشنها اليونان لاسترقاق غيرهم من الناس حروب مشروعة ، لأنه ليس من المستطاع أن تستقيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية الا باسترقاق هؤلاء البرابرة اذ انهم هم الذين يقومون بالأعمال الجسمية التي أعدوا لها . أما اليونان فيفرغون لما عداها من الأعمال الراقية التي تليق بهم .. وان المصلحة العامة لتقضي بتنحية العبيد عن المشاركة في شئون الحكم ، أو انتخاب الحاكمين لأنهم بطبعهم كالحيوانات ومن الخير للعبيد أن يظلوا عبيداً كما خلقهم الله ليخدموا الوطن كماتخدمه الحيوانات ...

وقد اشتركت الحضارات القديمة كلها في هذه الجريمة على قدم المساواة فالقانون الروماني ـ الذي ساد أوروبا بعد ذلك ـ كان يبيح الإسترقاق ، ويبيح للدائن أن يستولي على مدينه اذا عجز عن الوفاء ، بل كان الرومان يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكاً للفاتح يتصرف فيهم كيف شاء فله أن يقتلهم وله أن يستعبدهم ، وله أن يبيعهم . كذلك كان الفرس يعاملون العبيد

والارقاء وكذلك كان المصريون القدماء مع فارق بسيط في معاملة الرقيق عند الخطأ والصواب .

وكان المجتمع الايراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف . وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة . وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير . وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه .. ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها . وكان ملوك ايران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في في المجتمع ...

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدّعون أنه يجري في عروقهم دم الهي . وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة ، ويعتقدون ان في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً ... فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم

ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر . لا يجري اسمهم على لسانهم ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون ان لهم حقاً على كل انسان ، وليس لإنسان حق عليهم وان ما يقدمون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعمهم فانما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم الا السمع والطاعة . وخصوا بيتاً معيناً ـ وهو بيت الكياني ـ فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج . وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر ، وأباً عن جد ، لا ينازعهم ذلك الا ظالم ، ولا ينافسهم الا دعي نذل . فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلاً ، ولا يرون عنه محيصاً . فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، واذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة .. فقد ملكوا بعد « شيرويك » ولده « ازدشير » وهو ابن سبع سنين .. وملك «فرخ خسرو بن كسرى ابرويز» وهو طفل . وملكوا بوران بنت كسرى . وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية

يقال لها : « ازرمي رخت » ولم يخطر ببالهم ان يملكوا عليهم قائداً كبيراً ، أو رئيساً من رؤسائهم ..

وكان نظام الطبقات في الهند أعنف وابشع ما يصنع الإنسان بالإنسان ..

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي وألف فيه قانون مدني سياسي اتفق عليه ، وأصبح قانوناً رسمياً ، ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن : « منوشاستر » ..

يقسم هذا القانون الأهالي الى أربع طبقات متميزة . وهي (١) البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين . (٢) شترى : رجال الحرب . (٣) ويش : رجال الزراعة والتجارة . (٤) شودر : رجال الخدمة .. ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« ان القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ، وويش من أفخاذه والشودر من أرجله . ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم « ويدا » أو تقديم

النذور للآلهة) وتعاطى الصدقات . وعلى الشترى حراسة الناس ، والتصديق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والتجارة والزراعة . وليس « شودر » الا خدمة هذه الطبقات الثلاث . وعلى « ويش » رعى السائمة والقيام بخدمتها ..

«وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً الحقتهم بالآلهة . فقد قال : ان البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وان ما في العالم هو ملك لهم . فانهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم ان يأخذوا من مال عبيدهم شودر ـ من غير جريرة ـ ما شاءوا لأن العبد لا يملك شيئاً ، وكل ماله لسيده وان البرهمى الذى يحفظ « رك ويد » (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله : ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم اتاوة ، ولا يصح لبرهمى في بلاده أن يموت جوعاً وان استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم الا أن يحلق

رأسه ، أما غيره فيقتل ...

أما « الشترى » فان كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر) ولكنهم دون البراهمة بكثير . فيقول : « منو » ان البرهمى الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة ، كما يفوق الوالد ولده ..

أما «شودر» المنبوذون فكانوا في المجتمع الهندي ـ بنص هذا القانون المدني الديني ـ أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب . فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم اجر أو ثواب بغير ذلك .. وليس لهم أن يقتنوا مالاً ، أو يدخروا كنزاً فان ذلك يؤذي البراهمة واذا مد أحد من المنبوذين الى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده ، واذا رفسه في غضب قطعت رجله واذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه أو يحرمه وينفيه من البلاد ، وأما اذا مسه بيد ، أو سبه فيقتلع لسانه . واذا ادعى انه يعلمه سقى زيتاً فائراً . وكفارة قتل الكلب والقطة

والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ، ورجل من الطبقة المنبوذة ، سواء ...

وماذا كان موقف الديانات السماوية ـ التي ظهرت بعد ذلك ـ من قضية هؤلاء المسترقين التعساء ؟

أما عند اليهود فقد عرفوا نوعين من الاسترقاق :

أحدهما : استرقاق بعض اليهود عقاباً لهم على ارتكاب خطيئة من الخطايا المحرمة شرعاً ، أو وفاء لدين عليهم ..

وثانيهما : استرقاق غير اليهود من الشعوب التي كانوا يحاربونها وكانوا يبيعون أسراهم الأرقاء بيع السلع ، ويستخدمونهم في الخدمة بالمنازل ، وفي الزراعة ويعاملونهم معاملة الماشية ..

وكان الاسرائيليون يسترقون جميع النساء والأطفال من البلد الذي يغلبونه .اما الرجال فقد كانوا يضربون رقابهم بحد السيف ، ويفنونهم جميعاً كما أمرتهم كتبهم المقدسة وقد جاء في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج : اذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً . ان دخل

وحده فوحده يخرج . وان اعطاه سيده امرأة وولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون للسيد وهو يخرج وحده ، ولكن اذا قال العبد : أحب سيدي وامرأتي وأولادى لا أخرج حراً ، يقدمه سيده لله ، ويقربه الى الباب أو الى القائمة ، ويثقب سيده اذنه بالمثقب يخدمه الى الأبد ، واذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد ان قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفك وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها . .

وفي سفر التكوين : ان حام بن نوح ـ وهو ابن كنعان ـ كان قد أغضب أباه لأن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى وهو نائم في خبائه . فأبصره حام كذلك ، فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب ولعن نسله الذين هم كنعان وقال : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته وقال : مبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبداً لهم » وفي الاصحاح ٢٧ من سفر التكوين « ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبداً لهم » وبذلك يكون الرق عند

اليهود نظاماً معترفاً به في كتبهم المقدسة ..

وجاء الدين المسيحي فأقر الرق الذي أقره اليهود من قبل ونص القديسون على شرعية خدمة الرقيق لساداتهم وليس في الانجيل نص يحرمه أو يستنكره . بل كان بولس الرسول يوصى في رسائله باخلاص العبيد في خدمة ساداتهم فقال في رسالته الى أهل « أفسس » .

أيها العبيد : أطيعوا ساداتكم ـ بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس . عالمين انه مهما فعل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً ؟ »

كما أوصى الرسول بطرس بهذه الوصية ، وأضاف القديس الفيلسوف « توما الاكويني » رأي الفلاسفة الى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل أيده وزكاه لانه كما يقول أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض

الناس بالفطرة الطبيعية ..

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر « لا روس » : لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين الى اليوم فان نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته وان الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماماً الى يومنا هذا وتعذر على الانسان أن يثبت انه سعى في ابطاله »

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور « جورج يوسف » قال : ان المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسى والاقتصادى ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ولا حركتهم الى طلب الاستقلال ولا بحثت عن مضار العبودية ولا عن قساوتها . ولم تأمر باطلاق العبيد وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية بين العبد والسيد بل العكس هو الواقع فقد أكدت حقوق كل من الفريقين وواجباته ...

وقبل عامين قامت ضجة عالمية حول ما أثير عن الكنيسة الكاثوليكية وقيامها بحملات منظمة لبيع وشراء الفتيات من ولاية (كيرالا) الهندية .

وفي التحقيق الذي قامت به السلطات المسئولة في الحكومة الهندية المركزية وفي حكومة الولاية اعترف الكاردينال المسيحى أن هذه العملية وغيرها من عمليات الرقيق التي تمارسها الكنيسة كانت تتم تحت إشراف البابا وبعلمه !! وكان من الممكن أن تبقى هذه الجريمة سراً لولا وقوع بعض الفتيات في قبضة البوليس الإيطالي والألماني بتهمة ممارسة أعمال غير مشروعة ! وبسؤال الفتيات عن كيفية مجيئهن إلى إيطاليا وألمانيا أجبن : أن الرهبان قاموا بشرائهن من الهند ، ووضعوهن في أديرة تمهيداً لسلوك طريق الرهبنة ولكنهن آثرن حياة المجون والفسق على الحياة داخل أديرة الكنيسة الكاثوليكية !!

وتحطمت الأغلال والسلاسل

عندما جاء الاسلام
منح المضطهدين رجاء وأملاً . . .
وحرّر الأرقاء روحاً وجسداً
وكان صيحة الخلاص والحرية للشعوب
المقهورة تحت حكم الرومان والفرس . .
توماس ارنولد

ظهر الإسلام في عصر كان نظام الرق فيه دعامة ترتكز عليها جميع نواحي الحياة الإقتصادية وتعتمد عليها جميع فروع الإنتاج في مختلف أمم العالم. فلم يكن من الإصلاح الإجتماعي في شيء أن يحاول المشرع تحريمه تحريماً باتاً لأول وهلة لأن محاولة كهذه كان من شأنها أن تعرض أوامر المشرع للامتهان والمخالفة . واذا اتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به ارغام العالم على تنفيذ ما أمر به ، فإنه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهـوة عنيفة ويؤدى الى أضرار بالغة لا تقل في سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا في العصر الحاضر اذا الغى نظام البنوك أو الشركات المساهمة ، أو حرم استخدام العمال وقضى على كل مالك أن يعمل بيده ، أو بطل استخدام السكك الحديدية لأن الرقيق كان في هذه المرحلة من تاريخ البشرية هو القوة المحركة التي يقوم عليها نظام الاقتصاد في هذه العصور ؛ ولذلك .. أقر الإسلام الرق ولكنه أقره على صورة جديدة تنتهى بالتدريج الى إلغائه وإزالة

ما بقى من مخلفاته ، ودون إحداث أى أثر سيئ يقوض نظام المجتمع من أساسه .. فماهى الوسائل التى شرعها الإسلام لتخليص المجتمع من الرق في مختلف صوره وأشكاله .. ؟

ان الوسيلة التي شرعها الإسلام لتخليص المجتمع من الرق في مختلف صوره وأشكاله تتلخص في العمل على تضييق الروافد التي كانت تساعد علــى قيام الرق وانتشاره وتكفل بقاءه ، وبالتالى في توسعة الأبواب والنوافذ التي تؤدى الى تحرير الرقيق من قيده واساره . وبذلك أصبح الرق أشبه ما يكون بنهر كثرت مصباته وجفت منابعه وأمطاره .. وخليق بنهر هذا شأنه أن يكون مصيره الجفاف فى النهاية وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق في صورة سليمة هادئة ، وأتاح للعالم فترة للانتقال يتلخص فيها شيئاً فشيئاً من هذا النظام وآثاره ...

لقد كان من أهم المصادر التي كان يستمد منها الرق وجوده وانتشاره سبعة مصادر : أحدها الحرب بجميع أنواعها : فكان الأسير في حرب أهلية أو

خارجية لا يخرج مصيره عن القتل أو الاسترقاق .

وثانيها: القرصنة أو الخطف والسبي : فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة أسرى الحرب فيفرض عليهم الرق ..

وثالثها: ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا : فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجنى عليه أو أسرته .

ورابعها: عجز المدين عن دفع دينه : فكان يحكم عليه بالرق لمصلحة دائنه ..

وخامسها: سلطة الوالد على أولاده : فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء ..

وسادسها: سلطة الشخص على نفسه : فكان يباح للمعوز أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسه لقاء ثمن معين ..

وكان هذا النوع من الاسترقاق قائماً في الحبشة ـ مع المسلمين خاصة ـ حيث كان الدائن المسيحى يسترق المسلم المدين اذا عجز عن سداد دينه ، ولم

يبطل هذا النوع من الإسترقاق الا بعد الإحتلال الايطالي لمملكة يهوذا المتحجرة !

وسابعها: تناسل الأرقاء : فكان ولد الأمة يولد رقيقاً ولو كان أبوه حراً ، وكانت هذه الروافد تقذف كل يوم في تيار الرق بآلاف مؤلفة من الأنفس حتى أن عدد الأرقاء كان يزيد في كثير من الأمم على عدد الأحرار زيادة كبيرة ..

لقد جاء الإسلام وروافد الرق على هذه الكثرة والغزارة التي أشرنا اليها فحرمها جميعاً ما عدا رافدين اثنين وهما رق الوراثة – وهو الرق الذى يفرض على من تلده الأمة – ورق الحرب – وهو الرق الذى يفرض على أسرى الحرب . ثم عمد الإسلام بعد ذلك الى هذين الرافدين فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد مدة قصيرة .

فمن أهم القيود التي قيد بها رق الوراثة ان استثنى منه أولاد الأماء من سادتهن فقرر ان من تأتى به الجارية من سيدها يولد حراً اذا اعترف به السيد .

واذا لاحظنا أن الغالب فى أولاد الجوارى أن يكونوا من مواليهم أنفسهم - لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجوارى الا لمتعهم الخاصة - تبين لنا أن هذا القيد الذى قيد به الاسلام رق الوراثة كفيل بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه ونضوب معينه بعد فترة وجيزة ..

والتفت الإسلام بعد ذلك الى المصدر الثانى للرق وهو رق الحرب فاستثنى منه الذين يؤسرون في حرب بين طائفتين من المسلمين فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق سواء أكانوا من الطائفة المعتدية أو الطائفة الأخرى . أما الحروب الأخرى وهي التي تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى الى رق من يؤسرون فيها الا بشروط كثيرة من أهمها أن تكون الحرب شرعية أى حرباً يجيزها الإسلام وفق قوانينه وتعاليمه ولا يكاد الإسلام يبيح الحرب الا في ثلاث حالات : حالة الدفاع وحالة نكث العهد والمواثيق ، وحالة اثارة الفتن والاضطرابات ضد المسلمين ..

فاذا لم تكن الحرب مشروعة ـ بأن أعلنت في غير الحالات السابقة أو لم تنفذ وفق المناهج التي وضعها الإسلام ، فإن مثل هذه الحرب لا تؤدى الى الاسترقاق ـ وحتى مع توافر هذه الشروط فإن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة للأسر بل يبيح للامام ان يمن على الأسرى بدون مقابل . أو يطلق سراحهم في نظير فديـة أو على عمل يؤدونه ، أو في نظير أسرى من المسلمين عند العدو أو في نظير جزية تفرض على رؤوسهم . بل ان القرآن قد تحاشى أن يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن أو الفداء (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثختموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) ..

ومن هذا يظهر ان الإسلام قد سلك حيال الرق عن طريق الأسر نفس المسلك الذى سلكه حيال الرق الوراثى . فقد قيده بقيود تكفل القضاء عليه فهو لم يجعله نتيجة لازمة للحرب بل جعله مسلكاً

من المسالك التى يصح أن يتخذها الأمام ، ولم يرغب فيه بل رغب في غيره وفضله عليه على أنه لم يجز الالتجاء اليه الا بشروط لا تكاد تتوافر الا في الحروب التى اضطر اليها الإسلام في مبدأ ظهوره ، أما بعد استقراره وتنظيم العلاقات بين أممه والأمم الأخرى فيندر أن تتوافر هذه الشروط ومعنى هذا ان الإسلام لم يبح هذا النوع من الرق الا لأجل معلوم ..

هذا ما فعله الإسلام حيال روافد الرق ومصادره: قضى عليها جميعاً ما عدا رافدين اثنين : وقيد هذين الرافدين بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل ..

فما هى الوسائل التى شرعها الإسلام لتخليص الرقيق من العبودية والأسر ؟

لقد شرع الإسلام وسائل عدة لتحرير الأرقاء واستعادة حريتهم المفقودة ، واسترجاع كرامتهم الإنسانية .

لقد فتح الإسلام أمامهم باب الحرية وأتاح لتحريرهم فرصاً شتى .. فجعل من أسباب العتق

أن يجرى على لسان السيد في أية صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده . سواء كان قاصداً معنى اللفظ ام لم يكن قاصداً له . وسواء أكان جاداً في قوله أو هازلاً ، وسواء أكان في حالة عادية أم فاقداً لرشده بفعل الخمر وما اليها من المحرمات ومن هذا يظهر ان الاسلام يلتمس أوهى الأسباب لتحرير الأرقاء ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يجرى على لسان السيد في أي صورة لفظ « التدبير » أي الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده ، وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد في أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه ، أو يتصرف فيه تصرفاً ينقل ملكيته الى شخص آخر ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يأتى السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته ففى هذه الحالة يعتبر الولد حراً من يوم ولادته وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يكاتب السيد عبده أي يتفق معه على أن يعتقه اذا دفع له مبلغاً من المال . وقد هيأ الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال في صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية . فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المال اللازم لتحريرهم . ولم يكتف الإسلام بذلك بل خصص جزءاً من ميزانية الدولة لمساعدتهم وتخليصهم من الرق ويدل ظاهر القرآن على أنه لا يصح للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته . وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبي رباح فقال : أواجب على اذا طلب مني مملوكي أن أكاتبه ؟ فأجابه بقوله : ما أراه الا واجباً . ثم قرأ قول الله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » . واذا كان الرقيق المكاتب جارية سرى حكمها على من تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها

بدون عوض بمجرد ادائها المبلغ الذى تعاقدت عليه مع سيدها سواء أرضى السيد بذلك أم لم يرض .. ؟

ثم عمد الإسلام الى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التى يكثر حدوثها ، وجعل كفارتها تحرير الأرقاء . فجعله تكفيراً للقتل الناشىء من خطأ وما في حكمه . (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) وجعله كفارة للحنث في اليمين .

(لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون به أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » وجعله كفارة عن الظهار ـ أى اذا قال الرجل لزوجته أنت على كظهر أمي ـ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » .. وجعل الإسلام عتق الرقيق من أعظم القربات عند الله حتى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليضرب به المثل في جلال العمل وعظم الأجر «من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » ولم يكتف الإسلام

بهذا كله بل خصص كذلك سهماً من أموال الزكاة ـ أى جزءاً من ميزانية الدولة ـ للانفاق على تحرير الأرقاء ، أي في شرائهم وعتقهم ومد يد المعونة إليهم ..

فقال تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب »

وبذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شيء بنهر كثرت مصباته وجفت منابعه . فكان ولا بد أن يتوقف مسيره وتمحى بمرور الزمن آثاره ...

ان الدولة الإسلامية تعتبر تحرير الرقيق من أهم أغراضها الإنسانية ، وهى لهذا ترصد من ميزانيتها العامة لتحقيق هذه الغاية النبيلة . كما جعل العتق كفارة في كثير من الجرائم والمخالفات الدينية كالقتل الخطأ والظهار ، والايمان ، وافطار رمضان ..

والى أن تتحقق الحرية لجميع الأرقاء فى النهاية سن لهم الإسلام قوانين لم تعرفها ـ الى الآن ـ معسكرات الأسرى في بلاد الحضارة الأوروبية ...

واذا كان العالم لم ينس هذه المجازر التى قام بها فرسان الحرب العالمية الثانيه ضد اخوانهم في

الجنس، والعقيدة واذا كانت معسكرات الاعتقال ، وأفران الغاز ، وحرب الابادة التى شنها الحلفاء والألمان ضد خصومهم فى الرأى والسياسة ، واذا كانت عمليات الحرق ، والتجويع ، والتعذيب وقطع الرقاب التى مارستها فرنسا ضد المجاهدين على أرض الجزائر العربية المسلمة . اذا كان هذا كله لا يزال حياً في أذهان الناس ، ولا تزال صورته البشعة ماثلة أمام أعين العالم حتى هذه اللحظة .. فان الإسلام يسمو بتعاليمه فوق هذه الهمجيه التى انحدرت اليها شعوب تزعم أنها فوق البشرية ، وتدعى أنها سيدة العالم في الاخاء والمساواة والحرية ..

لقد منح الإسلام للأرقاء نفس الحقوق التى للسادة في مطالب الحياة العامة وكفل لهم الطمأنينة والسلامة والعافية ، وهيأ لهم الفرص المختلفة للخروج بهم الى عالم السيادة والحرية وشملهم بعدله الذى لا يعرف المحاباة ولا التفرقة ...

لقد كفل الإسلام للأرقاء غذاء كغذاء سادتهم وكساء ككساء أوليائهم .

روى أبو داود عن المعرور بن سويد قال : دخلنا على أبي ذر « بالربذة » فإذا عليه بردة وعلى غلامه (عبده) مثله فقلنا يا أبا ذر : لو أخذت برد غلامك الى بردك فكانت حلة وكسوته ثوباً غيره ؟ فقال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يكتسي ، ولا يكلفه ما يغلبه (ما يتعبه) فإن كلفه ما يغلبه فليعنه .

وحفظ الإسلام كرامتهم فلا يجوز خدشها بكلمة نابية .

يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من قذف مملوكه بريئاً مما قال أقيم عليه الحد يوم القيامة الا أن يكون كما قال » « ومن ضرب مملوكه ظلماً قيد منه يوم القيامة »

وروى أبو داود ان ابن عمر اعتق مملوكاً لـه ثم أخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال : ما لى فيه من الأجر ما يساوى هذا سمعت رسول الله يقول : «من لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته عتقه » .

وروى أحمد عن أم سلمة قالت :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيتي وكان بيده سواك فدعا وصيفة لها ـ فلم ترد ـ حتى استبان الغضب في وجهه . وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهيمة (شاة صغيرة) فقالت: أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله يدعوك؟ فقالت : لا . والذى بعثك بالحق ما سمعتك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك » .

والإسلام يقدم العبد الرقيق على الحر متى كان العبد أكفأ من الحر ، وأمر المسلمون بالسمع والطاعة إذا ملك عبد . . يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عبد أطاع الله وأطاع مواليه أدخله الله الجنة قبل مواليه بسبعين خريفاً فيقول السيد ـ رب هذا كان عبدي في الدنيا ـ أي كيف يقدم علي في الجنة ـ قال الله : جازيته بعمله وجازيتك بعملك . . . »

ويقول النبى أيضاً : لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد

وأجلس كما يجلس العبد » ولقد أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ينادي الرقيق بكلمات لا تجرح ولا تؤذي « لا يقولن أحدكم عبدى وامتى . ولا يقل المملوك ربى وربتى وليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدتي وسيدي فانكم المملوكون ، والرب عز وجل

ورأى النبي رجلاً على دابة وغلامه ـ عبده ـ يسعى خلفه فقال « يا عبد الله : احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك » ...

وكان صلى الله عليه وسلم يمنع التفريق في السبى بين الوالدة وولدها ويقول : من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامه ؟

يقول « فاندبرغ » : لقد وضع الإسلام قواعد كثيرة للرقيق تدل على ما كان ينطوى عليه محمد واتباعه من شعور انسانى نبيل يناقض كل المناقضه تلك الأساليب التي كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة ... »

لقد ولى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالاً على المدينة فترة من الزمن ، وأمرّ أسامة بن زيد على جيش فيه أبو بكر

وعمر ، ومرت بالمسلمين فترة كان كثير من أبناء فارس والروم ـ الذين أسروا في الحروب التى وقعت بينهم وبين العرب ـ متولين لأرقى المناصب. وقد سأل هشام بن عبد الملك الزهرى إمام الحديث النبوى فقال له : من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهرى : عطاء .. قال هشام : وبم سادهم ؟ قال : بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت له الرئاسة . ثم سأله عن اليمن ومصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة فأخذ الزهري يعد له سادات البلاد وكانوا من الموالى حتى أتى على ذكر النخعي فقال : إنه عربي فقال هشام : والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر ...

وقال عمر بن الخطاب حين اجتمع للتشاور بالمسلمين في آخر حياته لو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفته ...

ولم يكن الرق أو الجنس أو العنصر في ظل الإسلام مانعاً لأحد من الوصول الى المراتب العليا ما دامت عنده مؤهلاتها .. لقد كان عبادة بن الصامت

أسود اللون . وكان رئيس الوفد الذى أرسله عمرو بن العاص لمفاوضة المقوقس حاكم القبط عند فتح العرب لمصر . فهابه المقوقس لسواد لونه وبسطة جسمه وطلب من الوفد أن يتكلم غيره فردوا عليه : ان هذا أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا وقد أمره الأمير علينا فلا نخالف أمره . فعجب المقوقس كيف يكون الأسود أفضلهم ؟ فردوا عليه بأن الألوان ليست مما تقاس به الرجال فهناك مقياس الخلق والمواهب الفاضلة ..

وهذه المعاملة الطيبة التى كان يعامل بها الرقيق تمنى كثير من أحرار غير المسلمين أن يسترقوا ليسعدوا سعادة الرقيق في ظل الإسلام . وهذا هوزيد بن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجيئ أهله ليطلبوه من النبى فترك رسول الله الأمر لزيد يقرر فيه ما يختار فقال زيد : ذل الرق مع صحبة رسول الله أحب الى من عز الحرية مع مفارقته .. بل ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوج زيداً هذا من شريفة قرشيه هي زينب بنت جحش ..

ثُمَّ جَاءَ الاسْتِعمار

إنه لعار لأي أوربي ، عاصر هذه المرحلة
من تاريخ الاستعمار في آسيا وافريقيا . . .

برنارد شو

الاستعمار يساوي الاسترقاق ..

وهي كلمة استعملت في غير معناها . وتضمنت غير حقيقتها . فالاستعمار الاوربي كان في واقعه استخرابا لكل القيم والمبادئ ، وكان في حقيقته انتهاكا لحقوق الانسان ، وتدميرا لحياته ، وكانت الشعوب المقهورة أمام قراصنة الغزو ، واساطيل الفتح تتحول إلى اسواق يباع فيها الانسان بعقد من الخرز ، أو حلية من الزجاج وكما قال برنارد شو : ان الجريمة البشعة التي ارتكبتها اوربا في حق هذه الشعوب يشمئز منها كل رجل حر . . .

فماذا فعلت اوربا باسم هذا الاستعمار ؟

عندما اتصلت اوربا بافريقيا كان هذا الاتصال مأساة إنسانية عرضت سكان هذه القارة لليل طويل : خمسة قرون متوالية .

فان الدول الأوربية نظمت اختطاف هؤلاء المساكين واجتلابهم الى بلادها لتكلفهم بأشق الأعمال .. فلما اكتشفت امريكا آخر القرن الخامس عشر ازداد البلاء النازل بهؤلاء الأفريقيين التعساء وتقول دائرة

المعارف البريطانية ج ٢ ص ٧٧٩

ان اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال كان يتم بإيقاد النار في الهشيم الذي صنعت منه الحظائر المحيطة بالقرى حتى إذا نفر أهالي القرية إلى الخلاء تصيدهم الأنجليز بما اعدوا لهم من وسائل وشراك . . .

وعدا من كانوا يموتون من هذا القنص الآدمى في الرحلة الى الشاطئ الذى ترسو عليه مراكب الشركة الأنجليزية وغيرها كان ثلث الباقين يموتون بسبب تغير الطقس ويموت في اثناء الشحن حوالى ٤.٥ ٪ منهم و ١٢ ٪ في اثناء الرحلة . اما من كانوا يموتون في المستعمرات فلا حصر لهم فإن مستعمرة جمايكا البريطانية وحدها قد دخلها سنة ١٨٢٠ م ما لا يقل عن ثمانمائة الف رقيق ، ولم يبق في تلك السنة منهم سوى ثلاثمائة واربعين الفا . . .

وكثر عدد الزنوج في امريكا حتى بلغ حوالى عشرين مليونا هاجر اكثرهم منذ اعلن تحريرهم واسسوا لهم دولة في افريقيا تعرف الآن باسم « ليبريا » .

وكان احتكار تجارة الرقيق على سواحل افريقيا مقصورا على الأسبانيين ثم انتقل الى البرتغاليين من عام ١٥٨٠ الى ١٦٤٠ م ثم تسابقت الدول الأوروبية الى هذه التجارة بعد ذلك . . .

وكان التجار البريطانيون يوردون الرقيق الى المستعمرات الأسبانية ومكثت هذه التجارة مدة طويلة في ايدي شركات بريطانية بناء على تأييد حكومة بريطانيا لها ، ويقدر « برايان اوارد » مجموع ما استولى عليه البريطانيون من الرقيق بحوالى ٢,١٣٠,٠٠٠ شخص . . .

وهل كانت الحكومات الأنجليزية على صلة بهذه التجارة الهمجية التي يمارسها رعاياها على شواطئ البلاد الأفريقية ؟

لقد بلغت تجارة الرقيق اوجها قبل حرب الاستقلال الأمريكية وكانت قواعدها في ليفربول ولندن وبريستول « ولانكشاير » . . .

وكانت الملكة اليزابيت الأولى تشارك فيها واعارت التجار بعض اساطيلها وكانت شريكة لجون هوكنز

اكبر تاجر رقيق في تاريخ العالم ، وقد رفعته الملكة الى مرتبة النبلاء وجعلت شعاره رقيقا يرفل في السلاسل والقيود .. ومن المفارقات الطريفه ان السفينة التي اعارتها ـ الملكة ـ لجون هوكنز كانت تسمى « يسوع » وكان مخصصاً للابحار بالرقيق من الموانئ المذكورة الى مواطن الاستعباد ١٩٢ سفينة تتسع حمولتها في الرحلة الواحدة لحوالى ٤٧,١٤٦ رقيقا .. وقد طلبت انجلترا من رجال الدين المسيحى مبررا لهذه التجارة فاسعفوها بنصوص التوراة التي تقدمت في الكلام على الرق عند اليهود ، وبمقتضى هذه الفتوى كان استعباد الزنوج واجبا عند الأوروبيين لأنهم من سلالة يافث بن نوح الذى كتب على ذريته الأسترقاق كما تزعم ذلك اسفار العهد القديم ..

لم تكن هناك حقوق مقررة يلتزمها الملاك في معاملة هؤلاء الرقيق .

لقد كان العكس هو الواقع تماما . ففى ١٧ من مارس ١٦٨٥ م صدر قانون بتنظيم احوال الأرقاء في المستعمرات ولكنه ـ بالرغم من قسوته ـ لقى معارضة

شديدة من التجار واصحاب الأراضي التي كان يعمل فيها هؤلاء المساكين التعساء . .

ومما جاء في هذا القانون :

« من اعتدى منهم – من الرقيق – على السادة بأقل اعتداء قتل ، واذا سرق عوقب اشد العقاب ، واذا أبق العبد قطعت اذناه ورجلاه وكوى بالحديد المحمى واذا هرب للمرة الثانية قتل » . وكان الأنجليز في مستعمرة جمايكا يعدمون من هرب أكثر من ستة اشهر ، والسيد إذا قتل عبده امكن ان يجد مبرراً للقتل ويبرأ . وكانت الجمعيات الاستعمارية لا تهتم بعلاقة السيد بعبده ، وحرمت على الملونين وظائف البيض كما حرمت التزاوج بينهم ، ومنعت تمكين الأسود من التعليم وفي عهد لويس الرابع عشر كان القانون ينص على احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته . وفي الولايات الجنوبية بأمريكا كان الرقيق مهانا جدا ، واذا تجمع سبعة منهم في الطريق عد ذلك جريمة ويجوز للرجل الأبيض اذا مر بهم ان يقبض عليهم ويجلدهم عشرين جلدة . وقد نص القانون على ان العبيد لا نفس

لهم ولا روح . . وليست لهم فطانة ولا ذكاء ولا ارادة وان الحياة لا تدب الا في أذرعهم فقط وفي سنة ١٨٥٩ صوتت الجمعية التشريعية في « اركانزا » على طرد جميع الملونين من اراضيها وانذرت من لم يفارق الوطن ببيعه في المزاد العلنى . . .

وعندما طالب ابراهيم لنكولن بتحرير الأرقاء كان مصيره القتل غيلة وغدرا .. ومشروع الحقوق المدنية الذى وافق عليه الكونجرس الأميريكي اخيرا قوبل بمعارضة شديدة ولم ينفذ حتى بقوة السلاح والمدفعية وفي جنوب افريقيا يمارس البيض جريمتهم البشعة ضد الأكثرية الأفريقية واللوحات التي تحمل التحذير لزنوج امريكا وجرائم جماعة « الكلوكس » تفيض بها الصحف الأمريكية .. وكل محاولة تبذل لتصفية ما بقى من آثار هذه المأساة الأنسانية تذهب هباء امام دعاة التفرقة العنصرية . .

وليس جديدا ما يقع الآن في روديسيا وغيرها من بلاد العالم المختلفة . . .

لقد صدرت اتفاقيات الغاء تجارة الرقيق وصدق عليها في سنوات ١٨٣١ ـ ١٨٣٣ ـ ١٨٤٥ وكان من المدهش حقاً أن بريطانيا التي قامت بأكبر دور في سوق العبيد والنخاسة هي الدولة المتحمسة لألغاء هذه التجارة على وجه السرعة . . .

فلماذا غيرت بريطانيا وجهتها هذه فجأة ؟

والجواب عن هذا السؤال بوضوح وصراحة : ان بريطانيا بعد ان فقدت امريكا كمستعمرة ارادت ان توجه الى هذه الدولة الناشئة ضربة تقضي على اقتصاديات هذه البلاد بسرعة ولا يكون ذلك الا بألغاء تجارة الرقيق والقضاء عليها وهي التي كانت المورد الوحيد للأيدي العاملة في أمريكا الشمالية . . ومن ثم فقد تزعمت بريطانيا هذه الحركة في الوقت الذي بدأت تبحث فيه عن مناطق نفوذ جديدة وفي الوقت الذي بدأت تمارس فيه هذه التجارة بصورة جماعية باسم الحضارة والمدنية لقد حرمت بريطانيا خطف الأفراد وبيعهم في سوق النخاسة واباحت في نفس الوقت خطف الشعوب واستعباد اهلها في قحة ونذالة . . .

وهناك سبب آخر يعترف به الكتاب الغربيون .
يقول هؤلاء الكتاب : ان الرق الغى حين ضعف انتاج الرقيق لسوء احوالهم المعيشية وفقدان الرغبة او القدرة على العمل ـ بحيث اصبحت تكاليف العبد من اعاشة وحراسة أكثر من انتاجه فهى إذن حسبة اقتصادية يحسب فيها المكسب والخسارة ولا ظل فيها لأى معنى من المعانى الأنسانية التي تشعر بكرامة الجنس البشرى فتمنح الرقيق حريته من اجلها . هذا بالأضافة الى الثورات المتتابعة التي قام بها الرقيق فاستحال معها دوام ذله واستعباده ، ومع ذلك فإن اوروبا ـ حينئذ ـ لم تمنحه الحرية ولكنها حولته من رقيق للسيد الى رقيق للأرض يباع معها ويشترى ولا يجوز له أن يغادرها والا اعتبر آبقا وأعيد اليها بقوة القانون مكبلا بالسلاسل مكويا بالنار وهذا اللون من الرق هو الذى بقى حتى حرمته الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر اى بعد ان قرر الأسلام مبدأ التحرير بما يزيد على الف ومائة عام . .
وهل وضعت هذه الأتفاقيات موضع التنفيذ وتخلص

العالم من الرق وآثاره المختلفة بين الأفراد والشعوب ؟

اين هذا الرق الذى الغى ؟ وماذا نسمى ما يحدث كل يوم في انحاء العالم ؟ ما اسم الذى كانت تصنعه فرنسا في تونس والمغرب والجزائر من قتل للأبرياء وحبسهم في السجون القذرة بلا طعام ولا شراب وانتهاك اعراضهم والسطو على نسائهم وشق بطون الحوامل للتراهن على نوع الجنين فيها . . .

وبماذا نسمى هذا الذى يحدث في امريكا من وضع لافتات على الفنادق والنوادى تقول : ان هذه الأماكن للبيض فقط ، اوتقول في وقاحة كريهة « ممنوع دخول السود والكلاب » وقصة الملونين في افريقيا وحرمانهم من حقوقهم البشرية ، وقتلهم او اصطيادهم حسب تعبير الصحف الأنجليزية لأنهم تجرأوا فأحسوا بكرامتهم وطالبوا بحريتهم . . بماذا يسمى هذا كله ان لم يكن هو الرق في ابشع صوره ؟

ان الرجل الابيض لا يزال يعتبر نفسه سيد هذا العالم ، ولا تزال اوروبا تمارس تجارة الرقيق في صورة

جديدة تحيط بها شعارات مزيفة للمساواة والاخاء والحرية . . . .

وما هو موقف الأمم المتحدة من عمليات الرقيق التي تمارس خفاء في بعض البلاد الأفريقية ؟

لقد ذكر العالمان « جاك آلان . جورج . وهيرالد » في تقرير كتب في مائتى صفحة وقدم الى لجنة حقوق الأنسان بهيئة الأمم المتحدة ـ بعد ان قاما برحلة بدآها من مراكش مارين بنيجيريا والكونغو والسودان . وشاهدا حظائر الرقيق في تاو ، وطورا ، وطبوره ، وسواكن ورأيا وحشية القناصة وسوء معاملة المخطوفين المساكين . .

ذكر هذا العالمان ان ثلث الرقيق يموت في الطريق وخمسه يموت مريضا في المعتقل والباقى يباع بعد ذلك وقد صادفا في بعض البلاد سودانيين مسلمين بعثهما شيخ من دارفور لشراء بعض الرقيق واعتاقهم ، ورأيا كثيرا من المسلمين يفعل مثل ذلك ، كما شاهدوا في سواكن رئيس عملية الشحن للخارج « والتركر ومهولتر » الألمانى الذى احترف تجارة الرقيق بعد ان

اطلق من اسر الأنجليز عندما كان جاويشا في الحملة الألمانية الأفريقية وله دراية وخبرة بهذه التجارة في جميع انحاء افريقيا . .

ويقولان : ان الرقيق كان يشحن في قاع السفن تحت البضائع خوف التفتيش في الميناء وفي عرض البحار تقابلهم نقالات يتم عليها البيع والتوزيع في الخارج وهذه الحظائر يعرفها ويحميها المستعمرون الفرنسيون والإنجليز . . .

كما أن أسواق الرقيق الذى لا يعترف به الإسلام والذى قرر الغاءه نظراً لانعدام الأسباب الدينية الداعية اليه كان موجوداً في البلاد التى يحتلها الانجليز في جنوبي شبه الجزيرة العربيه .

وفي افريقيا الآن يقولون :

عندما جاء الاستعمار كانت معنا الأرض وكان يحمل معه الإنجيل . . .

فأعطانا الإنجيل وأخذ منا الأرض . .

ثم رحل بعد أن نهب الأرض وحرق الإنجيل . . ! !

الفهرس

القسم الأول

القسم الثاني

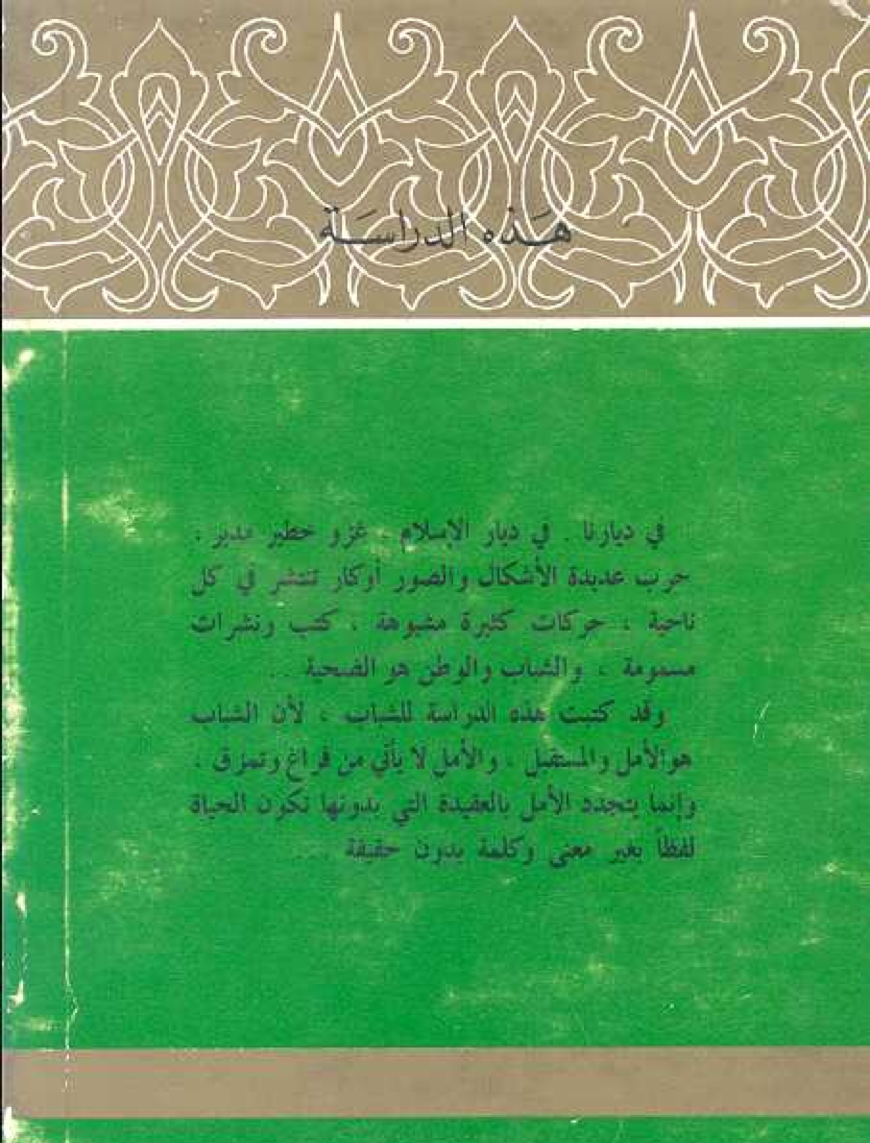
دراسات إسلامية

للباحثين عن الحق ... والحقيقـة

المدير العام : عبد الله بن علي المحمود
المدير الفني : عبد الودود شلبي

الدراسة القادمة : كيف أرى الله ؟!

مطابع الشروق ـ بيروت ـ ص . ب . : ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩ ـ برقياً : داشروق



هذه الدراسة
في ديارنا . في ديار الإسلام . غزو خطير مدبر : حرب عديدة الأشكال والصور أفكار تنتشر في كل ناحية : حركات كثيرة مشبوهة . كتب ونشرات مسمومة . والشباب والوطن هو الضحية ..
وقد كتبت هذه الدراسة للشباب . لأن الشباب هو الأمل والمستقبل . والأمل لا يأتي من فراغ وتمزق . وإنما يتجدد الأمل بالعقيدة التي بدونها تكون الحياة لفظاً بغير معنى وكلمة بدون حقيقة ..